ما أحَبَّ مساكنَك!

"أيها الملك السّماوي المعزّي، روح الحق، الحاضر في كل مكان، والمالئ الكلّ، كنز الصّالحات وواهب الحياة. هلمَّ واسكنْ فينا، وطهّرنا من كلّ دنس، وخلّص أيها الصّالح نفوسَنا."

بهذه الصلاة نفتتح جميع الخدمات الكنسيّة البيزنطيّة. فهي تعلّمنا أنّ الله في كلّ مكان، وخاصّة في قلوب المؤمنين. لماذا إذن نشعر نحن المسيحيّين أنّنا بحاجة إلى بناء كنائس لعبادة الله؟ اذا كان الله في كل مكان، فهل من الضروريّ بناء الكنائس؟ نجد الجواب في التّقليد الذي يرجع إلى العهد القديم: الله أزليّ وشامل للكون. وهذا يعني أنه خارج نطاق الزّمان والمكان. أمّا الانسان فيعيش في عالم تحدّه أبعاد الزّمان والمكان. نحن ههنا، في هذا المكان وفي هذا الآن. لذا، يتبادر السؤال التّالي إلى الخاطر: كيف يمكن أن نعيش ههنا، الآن، مع الله الذي هو خارج الزّمان و المكان؟ الواقع أن الانسان طالما تأرجح بين نزعتين: إمّا أن يعبد الله في كلّ شيء و في كلّ شخص (وهذا يعني تأليه الكون Pantheism) وإمّا أن ينكر وجود الله بحجّة أنّه إذا كان خارج الزّمان والمكان فهو غير موجود (وهذا هو الإلحاد Atheism). فكيف نحلّ هذه المعضلة؟ ظلّ الجواب متعذرًا على العقل البشريّ، إلى أن كشف الله لنا عن ذاته في العهد القديم، لمّا خلق الزّمان و المكان فقدّسهما. وبذلك مكّن الانسان من أن يختبر حضوره الدّائم في كلّ مكان. إنّه الحضور الإلهيّ الذي يفوق الإدراك الحسّيّ. وهذا الحضور اختبره الانسان في تابوت العهد وهيكل أورشليم، حيث كانت ترتفع الصّلاة متواترةً مع تقريب الذّبائح ليلَ نهار. وهكذا بقيت جماعة العهد القديم على اتّصال بالله الحاضر في كل مكان وزمان.

ثمّ بلغَ التّنازلُ الإلهي كمالَه في العهد الجديد، حيث أصبح السيّد المسيح ذاته الهيكلَ الجديد، وأمسى كلّ من يعتمد به مسيحًا جديدًا، يتجلّى فيه حضور الله في كلّ آن وكلّ مكان. وهكذا شيّد المسيحيّون الكنائس ليتسنّى لهم أن يؤدّوا لله عبادة جَماعيّة، بعيدًا عن بهارج العالم، ويَعُوا دورَهم كحمَلة للنّور في الظّلام: "بنورك نعاين النّور" (مزمور 35: 9)

فالمسيحيّ يرى في مجد الله السّاطع علامةً لدعوته، وهي أن يُنير العالم بمحبّة الآب والابن والرّوح القدس. وبطبيعة الحال، كان لا بدّ لمبنى الكنيسة أن يكون نقيضًا لما في العالم المحيط به من كآبة، أي أن يتّسم بالعظمة و البهاء. فتميّزَت هندسة الكنيسة اللّاتينيّة بالقناطر الرّشيقة المرتقية إلى العلاء، رامزةً إلى تَوق الانسان إلى مَن هو الكلّ في الكلّ، أي المسيح المنتصر، المالك من عَلياء صليبه.

أمّا في الشّرق فتُتوّج الكنيسةَ قبّةٌ مستديرة رحبة، رمزًا إلى السّماء المنحدرة نحو الأرض، وفي سقف القبّة يتجلّى المسيح الضّابط الكلّ، الذي به نتحوّل ونرقى إلى المشاركة في مجده الإلهيّ.

تقديس مبنى الكنيسة

عند استكمال بناء الكنيسة بكل ما أوتينا من مهارة بشريّة، علينا أن نتأمّل في طبيعتها. الحقيقيّة فأقلّ ما يقال فيها إنها صورة للمسيح. وإذا كانت صورةً للمسيح فهي صورة لكل مسيحيّ، لأنّنا مسحاء جدُد. وهذا الكشف أو الظّهور الإلهي يتمّ عند تقديس الكنيسة (أي تكريسها).

يبدأ الاحتفال بالطّواف ثلاثًا بذخائر القدّيسين التي ستوضع داخل مائدة الهيكل. لكن لماذا الذّخائر؟ لأنّها البقايا الأرضيّة لإخوتنا المسيحيّين القدّيسين، الذين تحوّلوا تحوّلا كاملا إلى مِرآة تعكس مجد الله، إلى حدّ أن أجسادهم ذاتها تشرّبت الطّاقة الإلهيّة.

ومن الصّلوات التي يتلوها الأسقف:

"تباركتَ إلى الأبد، يا إله وأبا ربّنا يسوع المسيح، الذي خوّلَنا بتجسّده الانتماءَ إلى الكنيسة، باكورة المختارين، المكتوبة أسماؤهم في السماء... فانظر إلينا نحن عبيدَك الخطأة الذين لا يستحقّون أن يحتفلوا بتقديس هذا المبنى الكنسيّ المبارك، ليصير رمزًا لكنيستك الحيّة المقدّسة التي ارتضيتَ أن تسمّيها هيكلك وأعضاء مسيحك."

ثمّ يمسح الأسقف الهيكل بزيت الميرون المقدّس بينما يتلو المزمور 132:

" ما أطيبَ وما أحلى أن يسكن الإخوة معًا! هو كالزّيت الطيّب على الرأس، النّازل على اللحية، النّازل على لحية هارون، على أطراف ثيابه. هو كندَى حرمون، النّازل على جبال صهيون. هناك الربّ بالبركة والحياة للأبد."أوصى

رتبة تقديس الهيكل هي إعادة لمنح المعموديّة والميرون المقدّس، لا لطفل، بل للهيكل الجديد. وهذا يعني بجلاء ووضوح أنّ على الكنيسة الجديدة أن تكون نموذجًا للحياة المسحيّة، ممتلئة بالصلاة والتّضحية، بالتّقدمة والبركة، بالسّلام والمشاركة، بالرحمة والحقّ، بالفرح والمحبّة.

ثم يُصار إلى تقديس مائدة الهيكل بوضع الذّخائر المقدّسة داخل ثقب في وسطها،

وختمه بالشّمع العسليّ المبارك، فيما نسأل الله أن يجعلنا واحدًا مع القدّيسين في المسيح. بعد ذلك يُعَمَّد الهيكل بغسله بماء الزّهر ثلا ث مرّات، كي يصبح "عرشًا مجيدًا ومسكنًا مقدَّسًا لله". وأخيرًا يطوف الأسقف في الكنيسة ويمسح جدرانها الأربعة بالميرون المقدّس، "رامزًا إلى تقديس البشريّة كلّها بنعمة المسيح"، كما يقول سمعان التيسالونيكيّ. وتُختَتَم الرّتبة بالاحتفال باللّيترجية الإلهية وتناول القربان المقدّس.

وهكذا يتلاشى مفهوم الزّمان والمكان، بينما نتمتّع نحن جماعةَ المؤمنين بجمال وجه المسيح الذي يفوق كل وصف، فتتجلّى نعمته فينا، ونعود إلى العالَم ونبشّره، بحضورنا فيه، أنّ الله يسكن بيننا، كما يقول القديس بطرس:

"بعدما ذقتم أنّ الربّ طيّب، أُدنوا إليه ، هو الحجر الحيّ، المرذول من النّاس، المختار من الله، الكريمُ لدَيه. وأنتم أيضًا، أُبنوا من أنفسكم كمِن حجارة حيّة، بيتًا روحيًّا...لأنكم كهنوت ملوكيّ، أمّة مقدَّسة وشعبٌ اقتناه الله، لتُشيدوا بحمد الذي دعاكم من الظّلمة إلى النّور (1 بطرس 2: 3-9)

أيّها الربّ لقد جعلتَ كنيستك سماءً ساطعة، تضيء المؤمنين. لذا نقف وسط هذا المسكن المقدّس هاتفين إليك: وطّد هذا البت يا ربّ.

عندما وافانا الكلمة بالجسد، كما يقول الرّسول يوحنّا، رأينا مجدَه، مجدَ وحيد من الآب، مملوء نعمةً وحقًّا. أمّا الذين قبلوه بإيمان فقد آتاهُم أن يصيروا أبناء الله، أبناءً لم يولدوا من دمٍ، ولا من رغبة جسدٍ، بل من الله. وبعدما تأيّدنا بنعمة الرّوح القدس وأنشأْنا بيتًا للصّلاة نهتف إليك: وطّد هذا البيت يا ربّ.

(النشيد الختاميّ والبيت
في رتبة تقديس كنيسة جديدة.)

طبع أصلاً في مجلة تير أيست الإصدار التاسع العدد رقم 1
(ربيع 1983) أعيد طبعه بعد الموافقة

ما أحَبَّ مساكنَك!

مكتب الخدمات التربوية
لأبرشيّة نيوتن الملكيّة
http://mekite.org/

حقوق الطبع الطبع والنشر محفوظة للصور
الأب برندن مكأنيرني